كي لا يسحره بريق السلطة

الحكم الرشيد هو عنوان النجاح والتقدم فى عصرنا الراهن. ويقوم هذا الحكم على مقومات أساسية أكثرها موضوعى، ولكن بعضها ذاتى فى مقدمته قدرة الحاكم أو الرئيس على مقاومة بريق السلطة.

ولذلك ربما يكون أفضل ما نقدمه إلى الرئيس المنتخب محمد مرسى عشية توليه مهام منصبه هو تجربة الكاتب المسرحى والمناضل السياسى فاكلاف هافل، أول رئيس لتشيكيا بعد ثورتها ضد الشمولية، الذى رحل عن عالمنا قبل أسابيع قليلة، ولكن تجربته الملهمة ستبقى موحية لكل من يعتبر.

فقد انخرط فى نضال شعبه ضد نظام طغى وتجبر، وساهم فى إسقاطه. وعندما انتُخب لقيادة بلاده، صار نموذجا للرئيس الديمقراطى الذى يحترم إرادة شعبه بل يَرهبه (بفتح الياء) ولا يُرهبه (بضمها). فقد اعترف هافل فى خطابه السياسى الوداعى عام 2002، عندما اعتزل السياسة وقال لها وداعا باختياره وإرادته، بأنه كان يعانى خلال فترة رئاسته رهبة الجماهير والخوف من ألاّ يكون جديرا بالموقع الذى وُضع فيه. كما أعلن يومها تبرمه من السياسة وسأمه من العمل الرسمى وسعادته بالعودة إلى نشاطه الأدبى. ولا يمكن لمن تابع تجربة هافل، الذى انتقل من النضال ضد السلطة إلى ممارستها، ومن ظلام السجن الذى قضى فيه حوالى خمسة أعوام إلى أضواء الحكم الديمقراطى، إلا أن يصدقه. كان رئيسا محبا لشعبه بمقدار ما عشق النضال من أجل هذا الشعب. وأثبت هذا الحب من

خلال صنع القرار، مثلما عبر عنه من قبل عبر كتابة الأدب، وتمكن من تحقيق المعادلة الصعبة التى لم يعرفها العالم منذ أن تبناها أفلاطون إلا فى حالات نادرة وهى الجمع بين الثقافة والسلطة.

وبالرغم من أنه كان مثقفا متمردا، فقد صار رئيسا ملتزما ببرنامجه وتطلعات شعبه، ولم يتمرد إلا على طقوس السلطة ومقتضياتها الشكلية. ورئيس مثل هذا لا يزعجه ترك السلطة بل على العكس يسعده أن يغادرها بينما روحه تهفو إلى ما هو أحب إليه منها، وهو الإبداع الأدبى الذى لم يبهجه فى حياته أكثر من أن يحقق إنجازاً فيه. ولم يخيب الله أمله حيث فوجئ بمنحه جائزة كافكا الأدبية بعد أقل من ثلاثة أعوام على اعتزاله العمل السياسى.

فخير الساسة هم أولئك الذين يعدون أنفسهم للرحيل عن السلطة فى اليوم الذى يعتلونها. وهذا هو ما فعله هافل الذى ألف فور مغادرته المنصب الرئاسى مسرحية جميلة اختار لها اسم «الرحيل» وجعل الشخصية المحورية فيها لموظف كبير يُرغم على ترك الفيلا التى خصصتها له الحكومة بعد إقالته من وظيفته. ويبرز هافل معاناة هذه الشخصية وعمق أزمتها النفسية، وكأنه يجسّد واقع الحكام العرب الذين رحل قبل أن يرى نتائج ثورات شعوبهم عليهم.

وربما يشعر قارئ هذه المسرحية أن كاتبها أراد بها أن ينبه هؤلاء الحكام وأمثالهم، وكذلك غيرهم من أصحاب المناصب فى مستويات مختلفة، أن دوام الحال من المحال، وأن على الإنسان أن يهيئ نفسه لترك أى موقع أو منصب. ولذلك ظل هافل يتمتع باحترام شعبه وتقديره حتى مماته.
وعندما علمتُ نبأ رحيله، تمنيت أن أعرف هل أُتيح له أن يتابع فى الأشهر الأخيرة مشهد حسنى مبارك راقدا ممددا فى قفص الاتهام وقد حل

عليه الخزى والعار، وهل تمكن من مشاهدة منظر معمر القذافى وهو يتوسل إلى من أوسعوه ضربا حتى الموت، وهل سأل نفسه: لماذا لم يأخذ هذا أو ذاك عبرة من غيرهما أو درسا من تجربته الرائعة؟!

غير أن الأكثر أهمية من ذلك هو السؤال عن المستقبل وعلاقة الرئيس القادم بالسلطة وغوايتها وشهوتها ومدى استيعاب دروس الربيع العربى، أيا تكون نهاية ثوراته التى لا تشبه الثورة التى ساهم هافل فى قيادتها، مثلما لا تشبه غيرها، بل تعتبر مزيجا من نماذج ثورية عدة. فإذا بدت الثورة المصرية فى يوم ما أقرب ما تكون إلى أحد هذه النماذج، لا تمر أيام أخرى إلا ويتبين أنها قد تكون أقرب إلى نموذج غيره. وها هى تبدو اليوم وكأنها تشبه الثورة الفرنسية الكبرى فى شهرها الحادى عشر حين اقترن التقدم الذى حققته فى بعض المجالات باضطراب عظيم فى غيرها.

ولذلك ربما تكون الهدية الأكثر نفعا التى يمكن أن نهديها للرئيس المنتخب هى نسخة من مسرحية هافل «الرحيل» ودعوات له بأن يلهمه الله قراءتها واستيعاب درسها الثمين كى لا يسحره بريق السلطة.